نظرات في الجانب الإداري لفكر توماس أوربان

مهمة سانسيمونية لتدجين المجتمع الجزائري

د.مصطفى عبيد
- باحث في التاريخ المعاصر جامعة الجزائر-

ملخص البحث:

يتناول هذا الموضوع جانبا مهما من جوانب فكر شخصية فرنسية مهمة، فأما الجانب المراد فهو الجانب الإداري، وأما الشخصية المعنية بالدراسة فهو توماس أوربان.

تكمن أهمية الشخص في كونه تحدى كل المعوقات وجعل من نفسه شخصية نافذة مؤثرة في السياسة الفرنسية بالجزائر خلال الفترة الممتدة بين 1837 و 1870 واستطاع أن يخطو خطوات عملاقة في التمكين للفكر السانسيموني الذي أراده منهجا يسير عليه الاحتلال في الجزائر.

وأما أهمية الجانب الإداري في فكر أوربان، فتكمن في محاولته صهر المجتمع الجزائري في البوتقة الأوربية من خلال المعمرين، حيث تظاهر _كما تظاهر السانسيمونيون- بالمبادئ السامية وبالمدنية وخدمة الإنسانية وبتشارك الجميع (أهالي ومعمرين) وبالتقريب بين العالمين الغربي والشرقي... .إلا أن الهدف المراد هو تدجين المجتمع الجزائري وفصله عن هويته وخصائص حضارته.

1. حياة أوربان:

توماس أوربان (Thomas Urbain) أو إسماعيل عربان كما كُتب في بعض الكتب التاريخية التي تناولت تاريخ الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، شخصية سياسية فرنسية تميّزت بتناقضات قلّما جمعها أحد من الخلق. فهو من مواليد 1812 مولّد (هجين) أبوه فرنسي أبيض هو أوربان برو (Urbain Brue) وأمّه أبّولين (Appoline) زنجية من كايان. وكان القانون الفرنسي السائد في بداية القرن التاسع عشر الميلادي يعتبر المولّدين فرنسيين من الدرجة الثانية.

تبعا لهذه الوضعية عاش أوربان محروما من أبسط لذات الحياة فتنكّر له أبوه ونسبته الحالة المدنية في مرسيليا بادئ الأمر إلى أمه فسُجّل تحت اسم توماس أبّولين حتى استطاع سنة 1836 أن ينتزع اعتراف أبيه به وأخذ اسم توماس أوربان.

درس أوربان في مرسيليا وحصل منها على شهادة الثانوية والتحق بكلية الطب، ولكن التحولات السياسية بفرنسا بعد سقوط الملك شارل العاشر سنة 1830 دفعته إلى الانتقال إلى كايان ولكنه سرعان ما عاد خائبا حيث قال:" واحسرتاه، هذه المدينة (كايان) مليئة بآبائي، وتتحدر منها أصولي، ولكنني لا أعرف بها أحدا ولم يسمحوا لي بمعرفتهم".(*Levallois,M.2001,31*)

في هذا الظرف الصعب عاد أوربان إلى مرسيليا واشتغل عند بائع صابون ولم يجد الأنس إلا في العائلة السانسيمونية (Levallois,M.2001,33) التي أعجب بأفكارها فانظم إليها وانخرط في نادي مينيلمونتون (Ménilmontant) في 15 جويلية 1832. وقال في ذلك:" استقطبتني قراءة كتب السانسيمونيين، فهذا بكفاءاته وقدراته وذاك بمؤلفاته، فأعطتني كمحروم الإرادة لبعث الحماس في مجتمع يزخر بإمكانيات النهضة المعطلة". (Levallois.A.2005,30)

تميز توماس بقريحة شعرية فذّة، استطاع أن يجذب بها من حوله، وفي مينيلمونتون وأثناء أمسية شعريّة في سبتمبر 1832 أنشد قصيدة دعاء الإنسان الأسود" Prière du Noir" في نغمة وصورة مأساويتين، حيث كان يلتحف غطاء كبيرا، فاندهش أحد كبار المذهب السانسيموني وهو غوستاف ديشتال " Gaustave d'Eichthal" لقوة الإنشاد ومأساوية المظهر، فعمل مع أونفونتان " Enfantin" (الأب الروحي للسانسيمونيين منذ وفاة سان سيمون) على التعرف عليه واجتذابه لخدمة مشروعهم الكبير. (Levallois,M.2005,34)

ونتيجة لفعاليته وحماسه في العمل اقترح عليه إيميل بارو " Emile Barrault" فكرة اكتشاف الشرق، فالتحق -من أجل ذلك- باسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية التي يبدو أنه تعلّم بها اللغة التركية، وبدأ بمساعدة ديشتال بفونتان بلو في ترجمة كتاب صادر بإنجلترا سنة 1832 يدعو إلى التقارب بين الشرق والغرب. ومن تركيا التحق بمصر سنة 1833. (Levallois,M.2005,37)

استقر أوربان بالإسكندرية، ولكنه كان دؤوبا إذ جاب مختلف أرجاء مصر من النيل والصعيد ودمنهور والسويس... (Levallois,M.2005,29) وتعلم اللغة العربية وخاصة اللهجة المصرية.

بدأ أوربان نشاطه الثقافي حينما تلقى تعيينا رسميا فيما بين 20 و 25 جوان 1834 كأستاذ للغة الفرنسية بمدرسة المشاة بدمياط من طرف المقدم – Lieutenant -colonel خليل أفندي، الذي وعده بأن ينقله في غضون شهر إلى المدرسة العسكرية التي أسسها بالمدينة نفسها، مقابل أجرة شهرية مقدّرة بألف (1000) قرش، هذه المدرسة التي افتتح نشاطه الرسمي بها بتاريخ 07 أوت 1834.

وهناك، في دمياط، وصلت أوربان رسالة تعزية من أخيه ينبئه فيها بوفاة والده برو الذي وافته المنية في 20 مارس 1834. رسالة جعلت أوربان طريح الفراش وهو الذي عاش محروما من عائلته جميعا.

نهل أوربان بمصر من التاريخ العربي والإسلامي، وأعجب به، خاصة في مقارناته بين الفتوحات الإسلامية والموجات الاستعمارية، فتعلق بالحضارة الإسلامية وبتقاليد وعادات العرب والمسلمين بعد معاشرته إياهم، وخاصة تضامنهم في حالات الجوائح، وهو الذي عانى ظروفا مأساوية منذ الصغر.

كما نوى أوربان الزواج من إحدى السيدات فربط معها علاقات مودة خالصة، إلا أن الوفاة أخذتها منه في 14 أفريل 1835 فعاش بعد وفاتها مأساة حقيقية أخرى انتهت به إلى الدخول إلى الإسلام، الذي وجد فيه وبين أهله الرّاحة والاطمئنان (Levallois,M.2005,49) والمخرج من المنابزة بعدم شرعية الميلاد.فاعتنقه وحاول الالتزام به قدر الإمكان. وكان بعض أصدقائه قد نصحوه بأن يعمل في مصر كسانسيموني مبشّر بدين جديد وحذروه من اعتناق الإسلام. (Levallois,M.2005,35)

أعلن أوربان إسلامه في 29 أفريل 1835 ونطق بالشهادتين أمام إمام مسجد مدرسة المشاة بدمياط الشيخ "علي خفاجة" بحضور نحو عشرين إماما، شرحوا له أركان الإسلام. وغيّر اسمه من توماس إلى إسماعيل تأسّيا بالنبي إسماعيل (عليه السلام) حيث يرى نفسه شبيها به، حين يرى أن إسماعيل عليه السلام مولّد من الأب إبراهيم والأم هاجر(عليهما السلام)، ويراه قد فقد أباه مثله، وهو يشير بذلك إلى قصة إبراهيم (عليه السلام) حين تركه الزوجة والولد بحثا عن الرّزق.كما قال تعالى:﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ

﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (قرآن كريم، سورة إبراهيم. الآية 37) ويركّز على اختيار اسم إسماعيل بالنطق والحرف العربيين لا على الصيغة اليهودية، ولذلك كان يصرّ على كتابة اسمه Ismayl أو Ismail ولم يرض بكتابته Ismaél لما يوحي به ذلك من ارتباط باليهودية. (Régnier, Ph.1993.91)

وكثيرا ما طُرحت قضية إسلام أوربان بين إخلاصه في ذلك وبين تضليله للناس، وبعد البحث وصلنا إلى أن أوربان قد أسلم اقتناعا منه بالدين الإسلامي الذي فضّله في كثير من المناسبات عن الديانة المسيحية ومات على إسلامه بالجزائر. وقال في ذلك:" لقد كنت أول مسيحي (؟) يعتنق الإسلام، ليس من أجل إبعاد خطر ولا من أجل استفادة مادّية وإنّما عن طموح وشغف، لقد اعتنقت الإسلام دون المروق عن المسيحية بأمل تحقيق التصالح بين الشّرق والغرب والتوفيق بينهما ". (Urbain ,I. 2005.104) فمن خلال هذا القول ومما انتهى إليه البحث نقول إن أوربان أسلم عن قناعة راسخة ولكنه كان بسيطا في تكوينه العقائدي وبسيط الاطلاع على أحكام الإسلام في هذا الشأن.

كما التقى أوربان أونفونتان بالقاهرة في نوفمبر 1833 حين زار هذا الأخير أتباعه هناك، وتعارفا جيدا، خاصة وأن أونفونتان قد أعجب بأوربان منذ الأمسية الشعرية بمينيلمونتون، في حين أن أوربان قد أعجب بأونفونتان وتأثر تأثرا شديدا بفكره، واعتبره شيخه وبقي على هذا الشعور رغم سخط أونفونتان عليه حين أسلم. (Levallois,M.2005,35,36)

ورغم عودة أونفونتان يائسا من نجاح مهمته في مصر سنة 1833، إلا أن أوربان لم يفقد الأمل، وواصل جهوده من أجل وحدة العالم الذي يراه منحدرا من أب وأم (في إشارة إلى آدم وحواء عليهما السلام)، ولم يعد إلى فرنسا إلا بتاريخ 18 ماي 1836 مفتخرا بإسلامه مدافعا عن خروجه من المسيحية دون تنكر لأصوله الفرنسية قائلا:" أحببت كثيرا الأجواء هناك (الشرق)، واللغة و عادات شعوب الشرق، ففي القاهرة لم أكن أعيش إلا مع المسلمين، بهذه الطريقة اكتشفت الشرق بكل جماله، والذين زاروه وتعرّفوا عليه سيعذرونني على شرقيتي" (Levallois,M.2005,35,36)، بل يرى ذلك الدليل القطعي على إمكانية التقارب بين العالمين فهو يقول:" أنا مسيحي ومسلم لأنني فرنسي". (Levallois,M.2005,35,36)

لمحة عن الفكر السانسيموني وعلاقته بالجزائر:

جدير بنا هنا أن نلقي بعض الضوء على هذا المذهب، من حيث الأيديولوجية وعلاقته بالجزائر.

إن السّانسيمونيّة "Saint-simonisme " مذهب أيديولوجي (فكري) ظهر في أوربا مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي على يد "سان سيمون"، يقوم أساسا على المثالية والاشتراكية، التي وجدت في الوضع الأوربي ميدانا خصبا لانتشارها، وهو الوضع الذي انتهى إلى الإعلان عن البيان الشيوعي سنة 1848. وكانت قد تأثرت بها فرنسا منذ الظروف المأساوية التي أدت إلى ثورات 1830 و 1848، منادية بضرورة " إقامة مجتمع يسوده العدل والنظام والانسجام، عن طريق التشارك والعمل الجماعي الذي يؤدّي بدوره إلى التشارك في الثروة والرّبح عن طريق حماية الدّولة". (سعد الله، أ. 1998. 437)

وتدعو السانسيمونية إلى الابتعاد عن المادية البحتة، وبدلا من ذلك تحث على العمل على احترام الإنسان وتشريف الإنسانية، من خلال تفضيل المصلحة العامة، ونبذ الأنانية، وإحلال مشاعر التضامن والكرامة محلها. وأن التنمية المادية التي تدعو إليها ماهي إلا وسيلة لذلك، وليست غاية في حد ذاتها، خاصة وأنها ترى أن الإنسان قادر على تسخير الطبيعة لصالحه. (Marcel,E.1941.15,16) إلا أن الملاحظ على أعمال السانسيمونيين بالجزائر، ومدى بشاعة استغلالهم للإنسان الجزائري وتلهفهم على جمع المادة، قد يحكم أن مبادئهم هذه لم تكن سوى مجرد ادعاءات لم تجد طريقها إلى الواقع.

وكان السانسيمونيون قد عرفوا الجزائر منذ عهد مبكر عن طريق أونفونتان حيث صرّح سنة 1843 :" إنني أعرف الجزائر التي زرتها ورحلت إليها وقطنت بها خمس سنوات من شبابي". (Revue,A.1918,258) إلا أن اهتمامه بها كان فيما بعد، حين استقر بها كعضو في اللجنة العلمية لاكتشاف الجزائر لمدة سنتين من 1839 وإلى غاية 1841. (Revue,A.1918,258) وكان قد حمل على عاتقه تطبيق المشروع السانسيموني بالجزائر منذ عودته من مصر سنة 1833.

ونتيجة لاطلاعه على أوضاع الجزائر ومعرفته بها منذ 1816، رأى أن الظروف بها تختلف عن مثيلاتها بمصر، وأن الجزائر تحمل عوامل نجاح المشروع الذي يتبنّاه، ومن خلاله نجاح المشروع الاستيطاني.وهكذا تحمّس السانسيمونيون لذلك، ولعب رجالهم أدوارا هامة في تثبيت الاستيطان الأوربي تحت السلطة الفرنسية، من خلال سعيهم إلى

إدماج المجتمع الجزائري في المجتمع الأوربي الدّخيل، وتوجيه الفكر والثقافة من خلال التحكم في المدارس التي أنشؤوها خصّيصا لذلك، (عميراوي،ح.2004 ، 62) وكذا توجيه الاقتصاد والتحكم فيه من خلال تأسيس القرى الفلاحية واستغلال المناجم، ومدّ طرق المواصلات والسكة الحديدية. (عميراوي،ح.2004 ، 62)

ولعل أهم من درس السانسيمونيين في الجزائر هو مارسيل إيميريت الذي خصّهم بكتاب شامل هو " السانسيمونيون في الجزائر" حيث يرى أن السانسيمونيين " رجال سياسة واقتصاد ، يمتازون بتفكير عميق، والشعب عندهم مقدّس" (Marcel,E.1941.10). ولذا كانت اهتماماتهم بعث المبشّرين للخروج بالإنسانية إلى حياة أفضل. أما من ناحية الاقتصاد فأهدافهم ترتكز على التطوّر الصناعي للخروج من التخلّف المورّث للبطالة ، ولن يتمّ ذلك إلا باستغلال الثروات، ولن يتوصّل إلى ذلك إلاّ بمدّ شبكة المواصلات وعلى رأسها السكة الحديدية فاهتموا بها اهتماما بليغا هنا في الجزائر، كما اهتموا بها في سائر الدول الأوربية كفرنسا وإيطاليا والنمسا وإسبانيا وروسيا. (Marcel,E.1941.11)

ومن خلال ذلك يتضح أن الفكر السانسيموني يتمحور حول قضيتين رئيسيتين هما ، التنظير ومباشرته بالعمل الفعّال. فالجانب التّنظيري اهتم به السانسيمونيون اهتماما بليغا من خلال أطروحات أو رؤى أونفونتان وأوربان ووارني وديشتال وغيرهم، مقدّسين فيه العمل المنهجي المنظّم القائم على الدّراسات العلمية ومبدأ الكفاءة. ولذا وضعوا أسسا لنجاح أعمالهم متمثلة في توجيه الرأي العام من خلال الإشهار الذي يخدم مشاريعهم، فطبّقوا مشروعا إشهاريا واسعا ، سواء من المنتجين أو الحكومة التي استغلت مكانة الصحافة كسلطة رابعة في المجتمع الليبرالي لتمرير كيفية إنجاح مشاريعها. هذا إضافة إلى المعارض المختلفة سواء الوطنية منها أو الدولية. (Emerit M,.1941.24)

كما عمل السانسيمونيون على التحكم في الثروة المالية من خلال إنشاء البنوك والمصارف، وربطوا علاقة هامة بينها وبين الإشهار من أجل الوصول إلى القوة الاقتصادية التي آمنوا بها في ظل الليبرالية السائدة، فنشروا المنافسة الحرّة، وامتلكوا الثروة، وأسسوا للقرض واهتموا به كوسيلة للثراء وتحقيق المصلحة الخاصّة، فنادى أونفونتان بأن يكون لكل تخصص صناعي بنك يدعّم منتجيه برأس المال الضروري، فاتحين المجال أمام الحرية في عقد الاتفاقيات الصّناعية والتجارية. مفرّقين في ذلك كله بين البنوك التي يدعون لإنشائها تحت تحكم الفرنسيين، والتي يحذّرون منها

وهي الواقعة تحت تحكّم اليهود أو البروتستانت، (Cordier,H.1937,22,23) فأسسوا البنك الفلاحي الجزائري سنة 1863 (سعد الله، أ. 1998، 440)، مدركين مدى تحكم أصحاب رأس المال في تسيير دواليب الحكم في المجتمع الليبرالي.

اهتم السانسيمونيون بالنقد اهتمامهم بالقرض، وذلك لأن النقد هو العجلة المحرّكة للتصنيع والأداة الفعّالة لرواج التجارة ورأوا بأن يكون أحسنه من الورق. (Cordier,H.1937,25)

وكان السانسيمونيون على قناعة راسخة بأن أَوْلى الدّول بممارسة الاحتلال هي تلك المالكة للركائز الثلاثة؛ القوة الدينية، والقوة العلمية، والقوة الصناعية. ولذا كانوا يرون أن أحق الدّول بالتوسّع الاستعماري هي على الترتيب السابق فرنسا وألمانيا وإنجلترا. (Cordier,H.1937,25)

من خلال ذلك ندرك أن الناظر للفكر السياسي الاقتصادي السانسيموني قد لا يجد تأويلا لنشاطات الأشغال العمومية التي قاموا بها منذ مجيئهم إلى الجزائر إلا حرصهم الشديد على أهمية بعث ثورة في الحياة الاقتصادية، من خلال العمل على استغلال كل الثروات المتاحة والبحث عن المجهول (اكتشاف الصحراء مثلا)، وتوفير الأسباب المتيحة لذلك، فأسّسوا فيلقا من الجيش خاصّا بالأشغال العمومية، وأنشأوا الشركات الكبرى، واستغلّوا الثروات فهيّأوا الخط الاستراتيجي قسنطينة- تلمسان، بواسطة السكة الحديدية التي امتدّت إلى عنابة أيضا. وربطت الجزائر بوهران، فربطوا بذلك العمالات الثلاثة. ولم يكتف السانسيمونيون بذلك بل ربطوا الجزائر بفرنسا، حيث أنشأوا الخط البحري مرسيليا- الجزائر، وأعلنوا مبدأ الموانيء الحرّة، وتنظيم الجمركة بإلغاء الحواجز ومراقبة السلع الأجنبية. (Cordier,H.1937,215)

ومن جانب آخر لاحظ السانسيمونيون أنّه يستحيل على أي دولة أن تبني اقتصادا سياسيا ما لم يتم تأهيل المجتمع فيكون منتجا، تعتمد عليه كقاعدة اجتماعية، ولذا عملوا على إنشاء مملكة جديدة، مبدؤها الأساسي احترام الكفاءة الفردية. وآمنوا بأن " كل إنسان ميسّر لما خلق له"، حيث يرون أن لكل إنسان كفاءاته وقدراته، ولكل كفاءة نشاطاتها. إلا أنهم يؤمنون بأن هذه الكفاءات تنتقل بذوبان الروح الفردية داخل الجماعة، وبالابتعاد عن الأنانية. وهكذا تتكوّن دولة بالجزائر (كما

كان يطمح السانسيمونيون)، تختلف عن سابقاتها وتكون أيضا أرستقراطية لا إقطاعية عسكرية، حيث تشكل مجتمعا جديدا يقوده إداريون أكفاء؟، لا فرق للثروة فيه عند الفلاح أو العامل أو التاجر. (Emerit M,.1941.26)

بهذه الأيديولوجية لعبت السانسيمونية دورا كبيرا في صقل فكر وشخصية أوربان، بعد أن اقتنع بأن مستقبله يكمن فيها، باعتبارها نادت بضرورة اختفاء مظاهر الرّق والعبودية، فرأى فيها ميدانا لتجسيد روح التضامن والحب، وهو ما افتقده منذ طفولته، واحترام الإنسانية وتشريفها، ونبذ الأنانية وتفضيل العام على الخاص. فحوّلته من مجرد عبد فاقد للهوية، ومن شاعر ينشد الحب والحنان إلى صاحب قضية ومشروع ناضل من أجله، فارتحل واكتشف، وصمّم على تحقيق قناعاته، وسخّر لها قلمه ونشاطاته، فدفعته للبحث عن الثروة بعد فقر، ونبذ الصّراع بين الشرق والغرب داعيا إلى حوار الحضارات، عاملا على محو العنصرية بين الأسود والأبيض، وبثّ الحب بعد صدام (بين العالَمَيْن)، رافضا سياسة القهر والاضطهاد، إذ كان يرفض القوة كوسيلة للإخضاع، فدعا إلى إخضاع المجتمع الجزائري عن طريق الإدماج ليُمسخ آليا في مقومات المجتمع الفرنسي، محاولا تصحيح مفهوم التّمدين الفرنسي للجزائريين ممّا جعله يرفض سيطرة المعمِّر على الأهلي، ويرفض لذلك تطبيق النظام المدني بالجزائر، (المركز الوطني للدراسات.قرص مضغوط.2002) الذي يعني – عنده – سيطرة المعمِّرين على الأهالي، ولكنه خسر المعركة حين طبّق الفرنسيون النظام المدني فخسرت فرنسا الكثير من المواقع التي كسبتها في ظل تطبيق المشروع السانسيموني.

كما أن ميولاته الأدبية جعلته توّاقا إلى حرية أكبر من تلك التي كانت تحاصرها الرّهبانية المسيحية، فوجد في السانسيمونية خروجا عن تلك الرّهبنة. ولعله من أجل ذلك أيضا اعتنق الإسلام الذي يرفض الرّهبانية أصلا.

أوربان يلتحق بالجزائر خدمة للمشروع السانسيموني:

استغل السانسيمونيون تعيين الجنرال "بيجو" (المركز الوطني للدراسات.قرص مضغوط.2002) بوهران سنة 1837 فتوسطوا لأوربان عنده، وعند وزير الحربية "البارون برنارد" "Baron Bernard "، الذي قدّم له أوربان نفسه كسانسيموني يعرف الشرق جيدا، من خلال تجربته في مصر، ومخالطته العرب والمسلمين، واطّلاعه على

الكثير من عاداتهم وتقاليدهم، وأنه يفهم اللغة العربية جيدا وخاصة اللهجة المصرية التي لا تختلف كثيرا عن اللهجة الجزائرية. وبيّن له أنه امتلك الشجاعة الكافية حين اعتنق الإسلام من أجل كسب ثقة العرب واكتشاف أسرارهم وحتى لا يخفوا عنه شيئا. فأعجب به بيجو وتمسّك به ليعضده في مهمّته بوهران، خاصّة وأن الجيش الفرنسي مقبل على استراتيجية جديدة وهي تعويض المترجمين الشرقيين بالمترجمين ذوي الأصل الفرنسي، (Levallois,M,2001,40) كما لعب البرلمان دورا مهما في تدعيم المرشح أوربان لتولي دور الترجمة، وخاصة عن طريق "واران" " Warein" و"بييرون" " Piéron" و إيميل بارو بتوسّط من " شارل بليشون"" Charles Plichon" الذي كتب أيضا إلى الوزير تأييده لأوربان على أساس الصفات المذكورة سابقا.أما بارو فقد كتب رسالة مطوّلة – على شكل تزكية شخصية – يدعّم فيها أوربان، ومما جاء فيها :" هيئة مشرّفة وقلب طيب مع ذكاء متّقد، إنه جذاب لكل شيء". (Levallois,M,2001,35,36)

وبفعل هذه المحاولات كتبت الوزارة بتاريخ 18 مارس 1837 إلى المعنيين الثلاثة؛ أوربان والحاكم العام وبيجو رسالة جاء فيها:" إن أوربان قد تم تعيينه كمترجم لجيش إفريقيا". (Levallois,M,2001,40)

ويبدو أن أول رد فعل لأوربان حول هذا التعيين هو قوله:" يجب أن تكون الجزائر المدرسة التي تحضّر فيها فرنسا تدخّلها الواسع في الشرق، وأن الرجال الجدد سيتكونون في الجزائر وأنا مسرور باعتباري واحدا منهم". (Levallois,M,2001,41)

نشاطات أوربان بالجزائر

الترجمة: أفريل 1837 – جانفي 1845

أول ما التحق أوربان بالجزائر عيّن مترجما في اللغة العربية بجيش إفريقيا في فيفري 1837 كما مر بنا، ومن أجل ذلك حطّ الرحال بالجزائر في شهر أفريل الموالي، وتقلّد منصبه بصفة رسمية في الثاني والعشرين منه إلى جانب الجنرال بيجو الذي كان آنذاك يقود سياسة الأرض المحروقة. ومن الأحداث الهامة التي حضرها أوربان وهو في بداية عهده توقيع معاهدة التافنة في 30 ماي 1837 وقد يكون هو من تولّى عملية الترجمة. لأنه يعترف بأنه كان يكتب رسائل الجنرال بيجو وغالبا ما يبقى في المعسكر حين يخرج الجنرال على رأس كتائب جيشه. (Levallois,A.2005,105)

ولكنه لم يطل المكوث بوهران التي غادرها باتجاه العاصمة في فيفري 1838 رفقة الجنرال أوفراي "Auvray" ومن ثم إلى تونس في مهمة لشراء أنواع من الخيول الجيدة مرورا بعنابة التي قطن بها مدة قبل أن يعيّن رسميا بقسنطينة.

وخلال الفترة الممتدة بين فيفري 1838 و جوان 1842 مارس أوربان مهام الترجمة لدى جنرالات آخرين وهم أوفراي 1838 وأورليان " Orléans" 1839 وروميني جانفي 1842، وقد يكونون هم الآخرون استفادوا من أفكاره، خاصة وأن أوربان بنباهته قد أصبح على دراية كبيرة بشؤون الأهالي وأصبح مترجما ومستشارا لمسؤوليه، هذا إضافة إلى خوضه ميدان الحروب رغم قناعته بعدم جدوى سياسة السيف ورفضه لها علانية. ورغم اهتمامه بمهمته الأساسية المتمثلة في الترجمة إلا أنه شارك في بعض المعارك في كتائب الجنرال بيجو ضد الأمير عبد القادر، وربما قام بذلك ليحافظ على مكانته وهو حديث عهد بالجزائر لأنه يؤمن أن المكانة بالجزائر للعسكريين. كما عاد أيضا لتدبير الحروب مع الدوق دورليان في سبتمبر 1839 ضد جيش الأمير مما يؤكد لنا أن الأمير لم ينقض معاهدة التافنة وإنما فرنسا هي التي نقضتها بتدبير من أوربان، مما نتج عنه استئناف الأمير الجهاد في 28 أكتوبر 1839.قبل أن يعود إلى قسنطينة في 20 نوفمبر من السنة نفسها، إلا أن قيادة الأركان العامة بقيادة الدوق دورليان أمرته أن يغادر قسنطينة فورا للالتحاق بالحملة التي يعدّها أورليان نفسه على المدية، ورغم تنفيذ أوربان الأمر إلا أنه تعذر عليه المشاركة في أحداثها، إذ أنه لم يتمكّن من إدراك الغزاة فانتظر عودتهم وشرح للدوق أسباب التأخر فقبل عذره وعرّفه بالدوق دومال "Aumale" ثم سمح له بالعودة إلى قسنطينة بتاريخ 29 ماي 1840.

واصل أوربان حملاته وهو بقسنطينة فشارك مع الجنرال (غالبوا) في إخضاع القبائل الثائرة في منطقة سطيف والحراكتة واستكمل مهمته هذه مع خلفاء غالبوا وهما الجنرال نيغريي ومن بعده الجنرال روميني، قبل أن يكفّ عن المشاركة في العمليات العسكرية ويلتزم مهمة الترجمة حين عُيّن إلى جانب الجنرال شانغاريي بالبليدة.

بعد فترة 1840 – 1843 التي اضطر فيها أوربان إلى التنقل بين المدية والبليدة ووهران عاد من جديد إلى قسنطينة في مهمة الترجمة لدى الماريشال فالي الذي كان قد عيّن لتوّه واليا عليها من أجل تنظيم الإدارة بها وهو العمل الذي شاركه فيه أوربان، وواصله مع الجنرال غالبوا من بعده كما رأينا منذ قليل.

ويتضح لنا من خلال هذه التنقلات أن الأوامر الكثيرة التي كان أوربان يتلقاها والتي جعلته في هذا التنقل الدؤوب من إقليم إلى آخر، ماهي إلا دليل على أن أوربان لم يكن مجرّد مترجم بل مستشارا أيضا وخبيرا بطرق إخضاع الشعب الجزائري، وهذا ربما دليل أيضا على دهائه السياسي الذي جعل مسؤوليه يرتاحون للدور الذي كان يقوم به، ولذا كتب يقول عن تعيينه إلى جانب الدوق دومال بقسنطينة في نوفمبر 1843 ما يلي:" عيّنت مترجما لديه (أومال) وأنبأني بحماس شديد عن رغبته في تنظيم وتهدئة الإقليم" ثم أضاف "... وأصبح يستشيرني ويأخذ برأيي". (Levallois,A.2005,111) ولاشك في أن هذه الاستشارة هي دليل على رغبة الدوق في الاستفادة من أراء مترجمه التي رآها تخدم مشروع الاحتلال وتسهّل عملية تنفيذه خاصة وأن الأنظار متّجهة إلى الحملة على بسكرة والعمل على فتح جبهة الصحراء، كيف لا ودور أوربان في الحملة على زمالة الأمير قبل نحو ثلاثة أسابيع وتخطيطه لإخضاع منطقة سطيف والحراكتة غير بعيد، وذلك ما أهّله لينال رتبة مترجم رئيسي مكافأة له. (Levallois,A.2005,111)

ترقى أوربان إذا في مهنة الترجمة هذه فبعد أن دخل الجزائر مترجما من الدرجة الثانية نال الدرجة الأولى بعد نجاح العمليات العسكرية سنة 1839 ثم مترجما رئيسيا سنة 1843 بعد الحملة على الزمالة ممّا يوحي أن هذه التتويجات ليست عفوية ولا بمحض الصدفة وإنما نظير دور خطير قام به لإنجاح هذه الحملات الإبادية حتى ولو عمل أوربان على تبرئة ساحته من المجازر التي ارتكبتها فرنسا في حق الأبرياء خلال حملات جيشها على المدية والبليدة... والتي كان بيجو ودينيفريي أبطالا لها ضد العزّل والنساء والولدان. ويبدو تبرير أوربان حين يخبر على استحياء أنه أخذ عطلة نقاهة مع نهاية سنة 1838 كما أخذ عطلة طويلة المدى على مدار سنة 1841. ولم تتوقف تتويجات أوربان فقد نال أيضا وسام الشرف في 30 جوان 1844 بعد احتلال بسكرة ومنطقة الزيبان. (Levallois,A.2005,36,37)

ولا يمكن أن نتكلم عن الترجمة دون الإشارة إلى علاقتها في ربط الصلة بين أوربان والمجتمع الجزائري، إذ أن هذه المهنة مكّنته من التعرّف على السّيّدة المطلّقة جرمونة بنت مسعود الزبيري ليربط معها ميثاقا غليظا حين اتخذها زوجة له، ولعل ذلك يدلّنا على أن أسرة جرمونة كانت، على الأقل، تعرف شيئا ما عن شخص أوربان، ولا نظن أن عائلة محترمة ترضى بتزويج ابنتها من " كافر" مراعاة لعدة اعتبارات دينية وحضارية ووطنية واجتماعية، ممّا يرجح فرضية علم عائلة جرمونة بإسلام أوربان،

خاصة وأنه رجل اجتماعي نشيط لتحقيق فكرة التقارب بين الشرق والغرب ومرتدٍ اللباس العربي الإسلامي.

الشؤون الأهلية: مارس 1845 – ديسمبر 1860

توطّدت العلاقات بين أوربان والأسرة الحاكمة بفرنسا منذ 1843 حين تناول أوربان وجبة غداء في البلاط الملكي، ففتح له ذلك مجال ترسيخ علاقاته أكثر مع كبار العسكريين خاصة بعد أن أصبح على دراية كبيرة بشؤون الجزائر المستعمرة، وعرف مفاصل تمرير المشروع الاستيطاني الذي كان يشترك فيه مع الإدارة حتى ولو اختلفت الأساليب في كيفية التعامل مع الجزائريين، وكان تمكّنه هذا قد جعله محل استشارة مسؤوليه، كما مرّ بنا، وها هو الجنرال بيدو يستفيد من خبرة أوربان الذي كان من مقربي الدّوق دومال ومترجمه بل مستشاره غير الرّسمي، فكتب أوربان حول الحملة على بسكرة مايلي:" وقد كنت أشرح له (بيدو) الأفكار التي تحدد السياسة العامة للدوق دومال (حاكم قسنطينة والقائد العام للحملة) لتنظيم القبائل الأهلية" مع العلم أن هذه الأفكار كانت وليدة اقتراحات أوربان باعتبار أن أومال كان يستشير مترجمه في كيفية إخضاع الأعراش (القبائل الأهلية). (Levallois,A.2005,111,112)

ونظرا لحاجة العسكريين الفرنسيين والحكومة العامة إلى أفكار أوربان ذات الأثر الفعّال في التمكين للاحتلال أسندوا له في جانفي 1845 مهمة العمل بمديرية الشؤون الأهلية بوزارة الحربية بباريس، وباشر مهامه بها رسميا في 18 مارس من السنة نفسها، وكتب أوربان عن ذلك فقال:"... ولذا (الدراية الكبيرة بشؤون الأهالي) تبوّأت فيما بعد مكانة هامّة في إدارة الشؤون الأهلية، إذ لم أكن مجرد مترجم كبقية زملائي وإنّما عُيّنت رسميا مع نهاية شهر جانفي 1845 بمديرية الشؤون الأهلية بباريس". (Levallois,A.2005,112)

وخلال هذه المرحلة أصبح أوربان ذا نشاط ميداني محتك بالشؤون الأهلية مباشرة، وبأمر من وزارة الحربية قام أوربان بزيارات تفقّديّة لمعاينة أوضاع الأسرى الجزائريين والعرب بصفة عامة، الذين كانت قد حكمت عليهم إدارة الاحتلال، طغيانا وظلما، بالنفي والتشريد. فزار مركزي سان مارغريت وحصن بريسكو خلال سبتمبر 1846، كما عاود زيارة سان مارغريت في جوان 1847 بأمر من الدوق دومال، وأخرى ثالثة في

19 أوت 1853. ومما لاشك فيه أن غايات أوربان من وراء الاحتلال تجد في مهمته في إدارة شؤون الأهالي فرصة أكبر لتجسيدها مقارنة بمهمة الترجمة التي تحدّ من دوره في تحقيق طموحاته هذه. ولذا يشير أوربان إلى أن نجاح الجمهورية الثانية سنة 1848 كان صدمة لآماله وهو (أوربان) الذي يمقت النزعة الليبرالية للجمهوريين والمتخوف قطعا من انفلات الأمور من أيدي العسكريين فتضيع مكانته بالخصوص. ولكننا ننبّه إلى أن أوربان لم يتخذ موقف معارضة من الجمهوريين في وقت كان يستطيع ذلك حينما انقسم تيار السانسيمونيين على نفسه إلى تيارين أحدهما يريد السلطة بالتمكين للعنف والقوة بفرنسا، والثاني يطمح إلى التركيز على العمل القاعدي واحترام الحرية والسلم والهدوء مع تشجيع الكفاءات على العطاء ودعم مبادراتها الفردية وتوظيفها، وهو التيار الذي التزمه أوربان. (Levallois,M.2001.45,46)

و إذا كان أوربان قد اهتم بالمنافي والمنفيين فإن زيارة كبير المنفيين الجزائريين آنذاك الأمير عبد القادر كان من أوجب الواجبات عليه، ولذا تكرّرت زياراته إليه بداية من جوان 1849 وتبادل معه الرسائل، بل وأصبح على قسط من المودة خاصّة وأن الضابط المكلّف بحراسة الأمير وهو النقيب بواصّونييه "Boissonnet" كان صديقا لأوربان.

أشار أوربان إلى بعض زياراته إلى الأمير (يطلق عليه اسم الحاج عبد القادر) ولكن دون أن يطلعنا على محتوى المحادثات، ومنها زيارة تمت خلال شهر ماي 1850 وأخرى في شهر أوت من السنة نفسها. (Levallois,A.2005,113) ولكننا إذا عدنا إلى ظروف الحكم في فرنسا مع بداية الخمسينات نجد أن الجمهورية الفرنسية كانت قاب قوسين أو أدنى من التحوّل إلى الإمبراطورية (التي أُعلن عنها في ديسمبر 1851)، ولذا يمكن أن نستنتج أن اتصالات أوربان بالأمير لعل الهدف من ورائها كان العمل على إقامة مملكة عربية بالجزائر يحكمها الأمير عبد القادر تحت سلطة الإمبراطور نابليون الثالث، وهي الفكرة التي أثيرت فيما بعد من طرف غلاة المعمرين رابطين ذلك بقرار الإمبراطور إطلاق سراح الأمير عبد القادر في 16 أكتوبر 1852، وما لذلك من علاقة بالزيارة التي قام بها أوربان رفقة الجنرال دوماس "Daumas" إلى الجزائر للاطّلاع على أوضاع الشؤون الأهلية بها في 09 و 10 سبتمبر 1851، ثم العودة بعدها مباشرة لزيارة الأمير بأمبواز. (Levallois,A.2005,47,48)

ومع تأسيس وزارة الجزائر والمستعمرات في جوان 1858 واصل أوربان مهامه المتعلقة بالشؤون الأهلية، إذ عُيّن في الفاتح من سبتمبر رئيسا لمكتب الشؤون الأهلية مقابل

أجرة قُدِّرت بـ 6000 فرنك فرنسي، تحت الإدارة المباشرة للكولونيل فرانكونيار" Franconière"الذي تربطه بأوربان علاقات حميمية، (Levallois,A.2005,54) انتهت إلى رفع قيمة الأجرة إلى 6500 فرنك مع غرّة سنة 1860. وقد وصفه أوربان بقوله:" كنت معجبا بالكولونيل فرانكونيار فهو قائد محترم، اتخذ منّي صديقا وعملت معه من كل أعماق قلبي". وذلك على عكس علاقاته مع الجنرال دوماس الذي كان من المفروض أن يكون على علاقات طيبة معه لضمان السير الحسن لشؤون الأهلية، فقد وصفه أوربان بقوله:" عملت مدة سبع سنوات تحت إمرته (دوماس) ولم تجمعني به صداقة ولم يكافئني يوما". (Levallois,A.2005,116) ولعل ذلك ما جعلنا لا نرى كبير أثر لأوربان في فترة إدارة دوماس للشؤون الأهلية، فربما كان أوربان فاعلا بينما كان دوماس مستأثرا بكل ما نُسب إليه تاريخيا من أعمال خلال إدارته تلك، ولكننا لم نتمكّن من إثبات رأينا هذا لعدم إشارة أوربان إليها في كتاباته. وقد استمرّ أوربان في مهمته هذه إلى غاية حلّ وزارة الجزائر والمستعمرات رسميا وإعادة تأسيس الحكومة العامة في 24 نوفمبر 1860.

وفي هذه المرحلة الأخيرة، وهو رئيس لمكتب الشؤون الأهلية أخذ أوربان عطلة قضاها في نويي " Neuilly" بضواحي باريس، وهناك ألّف كتابه الهام " الجزائر للجزائريين" وهو الكتاب الذي خرج إلى السوق في نوفمبر 1860 وتلاه مباشرة نهاية عهد وزارة الجزائر والمستعمرات ونهاية مهمة أوربان بها، وتحوّله إلى الاستشارة بالحكومة العامة مكلّفا بالشؤون الأهلية. وقد يجعلنا هذا نستنتج أن كتاب الجزائر للجزائريين قد يكون أثّر على الإمبراطور فأصدر قرار حل الوزارة، وهي التي كانت تمكّن للمدنيين الذين هم خصوم أوربان وأطروحات نابليون في سياسة المملكة العربية، وهذا ما ذهب إليه أوربان نفسه حين كتب:" حصل لي شرف الالتقاء بالأمير جيروم مرة أو مرّتين حين كان مسؤولا عن وزارة الجزائر، وقد تميّز بفتح الحرية أمام الجميع، فكنت أدلي برأيي بحرية تامة ولكن سرعان ما أنفّذ قراراته بوفاء كبير، وهي القرارات التي كانت تتناقض مع أفكاري الشخصية". (Levallois,A.2005,60) ولعلّه مما يبيّن دور كتاب أوربان في إنهاء وزارة الجزائر والمستعمرات وعودة الحكومة العامة، إضافة إلى ما ذكرنا، هي قناعة الإمبراطور بالأفكار التي جاء بها والتي هي متناقضة مع أطروحات الوزارة، ثم تقريبه لأوربان منه شخصيا واعتماد أفكاره في

مراسلاته الرّسمية إلى حكام الجزائر كما حصل في رسالتي 1863 و 1865، بل والدفاع عن بقاء أوربان بالجزائر.

الاستشارة بالحكومة العامة: ديسمبر 1860 - أكتوبر 1870

ربما نرى أنه من المفيد الإشارة إلى أن عهد أوربان بالاستشارة بهرم السلطة ولو بصفة غير رسمية لم يكن وليد أواخر 1860، وإنما كان بتاريخ 28 سبتمبر 1847 على إثر تعيين الدوق دومال حاكما عاما للجزائر، وهو الذي استعان بأوربان وجعله من مقرّبيه، والهدف واضح وهو الترجمة والاستشارة، خاصة وأن الرجلين يعرفان بعضهما بعضا من خلال المهام التي مارساها معا حينما كان أومال على رأس ولاية قسنطينة بداية الأربعينيات، وكان قد استفاد من آراء مترجمه المستشار، ولذا كافأ أومال مترجمه في الفاتح من سنة 1847 بالتوسّط له لنيل وسام الشرف الفرنسي وهو ما تم فعلا. (Levallois,A.2005,43)

ولعل أول حدث هام شهده أوربان وهو بالقرب من الحاكم العام أومال هو استسلام الأمير عبد القادر في 24 ديسمبر 1847، وربما كان أوربان فاعلا في العملية، أو على الأقل كان مترجما لأنه كان حاضرا أثناء عملية الاستسلام.

وكان التعيين الرّسمي لأوربان في مهمة الاستشارة بتاريخ 16 ديسمبر 1860، حين عُيّن مستشارا مقرّرا بمجلس الحكومة العامة، التي عادت من جديد لتعلن تمكّن العسكريين من زمام الحكم في الجزائر وتحت حاكم جديد هو الماريشال بيليسيي المعيّن بتاريخ 24 نوفمبر 1860. وقد قال أوربان عن ذلك:" قضيت مع السيد مارسيي (مدير الشؤون الأهلية بالحكومة العامة) وقتا طويلا في مناقشة كيفية تمدين الأهالي، وطلبت منه تعييني مستشارا بالحكومة العامة فأنشأ لي مديرية الشؤون الأهلية تلبية لطلبي وذلك بقرار 16 ديسمبر 1860، وبأجرة 1200 فرنك مع التنقلات المجانية. (Levallois,A.2005,56)

وإذا كان أوربان قد أدار مكتب الشؤون الأهلية بمقر وزارة الحربية بباريس، فإن مهمته الجديدة بالحكومة العامة فرضت عليه الدخول إلى الجزائر والاستقرار بها بداية من 28 جانفي 1861، ففتح بذلك عهدا جديدا كله حيوية وعزم على ضرورة تحقيق أهدافه بتنفيذ ما رآه مشروع الاحتلال، فسعى جاهدا لبث أفكاره من خلال الرسالتين اللتين بعث بهما الإمبراطور سنتي 1863 و 1865 ومن خلال الأفكار التي

قدّمها كمستشار ومن خلال الكتابين الهامّين اللذين ألّفهما أو التقارير التي كتبها لكبار المسؤولين العسكريين في كيفية إدارة الحكم بالجزائر.

وكشف أوربان عن اختلاف كان قائما بين الإمبراطور نابليون الثالث وبين الحاكم العام راندون حول كيفية تسيير الشؤون الأهلية، كما كشف عن انسداد كان حاصلا في مجلس الحكومة بالجزائر، فأما الاختلاف فكان حول فكرة حشد الجزائريين (القبائل العربية) وتفتيت ممتلكاتهم وهي السياسة التي طرحها راندون فيما رفضها الإمبراطور، وأما الانسداد فكان نتيجة لهذا الاختلاف. وقد ساهم أوربان كمقرر للمجلس في الوصول إلى فكرة معتدلة تحول دون تطبيق أفكار غير راض عنها شخصيا ولم يكن ليرضى عنها الإمبراطور، وتجنبا في الوقت نفسه، لأي تصادم قد يحدث مع الحاكم العام نفسه، وتمثّلت هذه الفكرة في إصدار إجراءات تقتصر على تسهيل انتقال ملكية الغابات من الأهالي إلى المعمرين دون تعميمها على مختلف الأملاك كما كان يريد راندون.

لعبت هذه الاختلافات دورا كبيرا، فيما يبدو، في التأثير على أوربان فجعلته يبحث عن أسباب لعدم حضور اجتماعات المجلس، كما كانت له دافعا قويا للإقبال على تأليف كتابه الثاني " الجزائر الفرنسية"، ونترك القارىء أمام صورة بليغة من تعبير أوربان شخصيا حين قال:" أثناء انعقاد المجلس الحكومي طلبت فترة للراحة لنقل باية (ابنته) إلى أمها بقسنطينة، وهناك حررت كتابي " الأهالي والمعمرون"". (Levallois,A.2005,64,65) ويبدو واضحا أن الأسباب التي قدّمها تبريرا لغيابه غير مقنعة أصلا، ثم ارتبطت بالمبادرة إلى تأليف كتابه" الجزائر الفرنسية" الذي اعتبره وسيلة لتوضيح الرؤية وإزالة الغموض بشأن الوضع الجزائري.

وتتويجا لنضال أوربان في ميدان الشؤون الأهلية جاءت قرارات الإمبراطور في رسالة 1863 التي تدعو إلى تشارك الأهالي والمعمرين من أجل بناء الجزائر وهي من أفكار أوربان شخصيا. كما قرر الإمبراطور أيضا الإعلان عن المملكة العربية بالجزائر بغية حفظ بعض حقوق الجزائريين على الطريقة التي يراها أوربان واقتنع بها الإمبراطور. (Levallois,A.2005,67)

وإذا كان الإمبراطور قد أجزل العطاء لأوربان مكافأة له عن تضلّعه في معالجة شؤون الأهالي فيما يخدم المصلحة الفرنسية بسديد رأي وتفانٍ كبير، فإن أوربان

كان قد عانى كثيرا من تهجّمات منتقديه على شخصه بسبب آرائه تلك لأنهم اعتبروها" ضجّة ضد الاستعمار الأوربي، خاصة بعد أن ساندهم بعض ضباط المكاتب العربية خدمة لمصالحهم، وهم الذين كان الواجب عليهم الوقوف إلى جانب صف أوربان باعتبارهم في نفس السبيل. (Levallois,A.2005,67)

هذه الضجّة جعلت الحاكم العام بيليسيي يطلب من أوربان الاستجابة لآراء غلاة المدنيين ويغادر الجزائر، هذا ظاهريا، أما الأصل فإن بيليسيي هو الآخر كان يرى أن أوربان شخص غير مرغوب فيه، ولا يشاطره أفكاره. إلا أن تدخّل الإمبراطور شخصيا حال دون التحاق أوربان بفرنسا، فراجع بيليسيي نفسه وطلب من الإمبراطور تعيين أوربان قنصلا بإحدى الدول الإسلامية، فرفض الإمبراطور ذلك بشدّة وأجابه :" أن تطلب أن يكون أوربان واليا على إحدى ولايات الجزائر فلا، كُفّْ عن مزيد من التهجّم على أوربان. إن أوربان لابد أن يكون على الأقل إلى جانب جنرالاتنا بالجزائر وبصفة دائمة". (Levallois,A.2005,67,68)

وإذا كانت هذه التهجّمات كلها لم تصدّ أوربان عن عزمه في مواصلة التّمكين لأفكاره التي آمن بها، إلاّ أن مجيء ماكماهون على رأس الحكومة العامة وراندون وزيرا للحربية قد أثّرا على الإمبراطور من خلال فكرتهما القائلة بضرورة تجنّب الصّدام مع الرّأي العام للمعمرين وتجنّب حالات الغضب التي تثيرها أفكار أوربان الذي قال بهذا الصّدد :" حاولت أن أقوم بشيء يخدم الأهالي ويقرّبهم من نيل حقوقهم" ثم أضاف :"... وفي ظل ذلك (التأثير على الإمبراطور) لم أستطع فعل أي شيء" (Levallois,A.2005,72)

ولم يكن أوربان يعلم أن هذه هي آخر محطّة له مع الإمبراطور ونظامه على حدّ سواء، حيث استمر في مهمة الاستشارة هذه إلى غاية هزيمة فرنسا أمام بروسيا التي أدّت إلى حل مجلس الحكومة الذي كان أوربان يعمل مستشارا به وذلك في 30 أكتوبر 1870. الشيء الذي جعل أوربان يغادر الجزائر في 08 نوفمبر الموالي باتجاه فرنسا. ولم يعد إلى الجزائر إلا في 17 ديسمبر 1882 رفقة زوجته الثانية (لويز) وقد استقرّ فيها إلى غاية وفاته بها في 28 جانفي 1884. كما أن هزيمة فرنسا أمام بروسيا أدّت إلى سقوط الإمبراطورية الثانية وقيام الجمهورية الثالثة سنة 1871.

وفاة أوربان

علمنا مما سبق أن نهاية المسؤوليات الإدارية لأوربان بالجزائر إنما كانت مع سقوط الإمبراطورية سنة 1870 فغادر الجزائر كما سبقت الإشارة. وقد بقي أوربان يكتب في الصحف الفرنسية التي كان يكتب لها من قبل ردحا من الزمن إلى أن اشتدّ عليه الحزن وضاق عليه العالم بما رحب بعد أن فقد ابنه (أوفيد)، فرجع إلى الجزائر في ديسمبر من سنة 1882 أي بعد حوالي شهر من وفاة الابن. وظل على تلك الحالة المعنوية المنهارة إلى أن وافته المنية بالجزائر في 28 جانفي 1884. ودفن بالمقبرة المسيحية بسانت أوجان (بولوغين حاليا) في قبر جماعي لعائلة أوربان، على قطعة أرضية كان قد اشتراها أوربان نفسه، وهي الآن تضم رفاة توماس إسماعيل أوربان وأمه أبّولين وابنه أوفيد وزوجته الثانية لويز لوراس. في حين دفنت زوجته الأولى جرمونة في مقبرة عبد الرحمان الثعالبي بمدينة الجزائر دوما. في جنازة مهيبة. *(Levallois,A.2005,69)*

مهمة تدجين المجتمع الجزائري:

الحاق الجزائر بالمدنية الفرنسية (؟):

كانت فرنسا قد أعلنت إلحاق الجزائر بفرنسا وفق قرار 22 جويلية 1834 وأكدت ذلك بقرار الجمهورية الفرنسية الثانية سنة 1848 حين اعتبرت الجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا. ولتنفيذ سياسة الإلحاق هذه التي آمن بها أوربان دعا المعمرين إلى التأثير والحذر من التأثّر، من خلال ما يتميّزون به من خصائص تبرز تفوقهم كالفوارق الكبيرة بين حالتهم الاجتماعية وبين الحالة الاجتماعية للأهالي. و تساءل عن الكيفية التي يُخرج بها الجزائر (المتخلفة بقرون على حد تعبيره) من خطر الوقوع في التوحش والبدائية ثانية فقال :" كيف يمكننا أن نُلحق هذا المجتمع المسلم بالحضارة؟... وكيف يمكن أن نبعد إفريقيا (الجزائر) المتخلفة بقرون عن خطر الوقوع في البدائية ثانية؟ فلنفهم الواقع جيدا لنبحث عن طبيعة المجتمع المسلم الذي نريده". (Voisin,G.1861.28)

وواضح أن أوربان قد حكم على المجتمع الجزائري بالتخلف عن الحضارة بقرون، وبتأثر كبير منه بادعاءات المدرسة الاستعمارية الفرنسية القائلة بعدم وجود أمة

جزائرية موحدة وإنما وجود إثنيات جزائرية، حاول هو الآخر، جاهدا، إنكار وجود مجتمع جزائري فوصفه تارة بالجبليين وتارة بالرّحّل ومرة أخرى بالعرب والبربر، (Warnier,A.1865.05) وقلما وصفه بوصف الأمة مثلما نجد مقولته الشهيرة " إن الأمة التي قاومت الاحتلال الفرنسي أكثر من ثلاثين سنة لهي أمة جديرة بالاحترام" .

وجه أوربان انتقاده إلى إدارة الاحتلال بشدّة معتبرا إياها قد عجزت عن تغيير الكثير من هذه الخصائص. فأشار إلى " إن شرف فرنسا ليس في مزيد من الهدم ولا في مصادرة ممتلكات الأهالي وإنما في الإرادة المثلى وإلحاقهم بالمدنية من خلالنا". داعيا فرنسا، من أجل ذلك، إلى أخذ هذه المهمة مأخذ الجد والاستعداد لها استعدادا بليغا حين ضمّن ذلك في قوله:" وبفعل عدم التنظيم الذي كان عليه الغزاة الفاتحون (الفتوحات الإسلامية) كسب الأهالي الرهان في العديد من المرّات". (Urbain,I.1862,28)

من المبايعة في دولة الأمير والانتخاب في الجمعية الفرنسية إلى بدائية حكم القبائل:

رفض أوربان تقليد الحكم العثماني بالجزائر الذي يراه كغيره من أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية، حكما تيوقراطيا يتمتع فيه الحاكم بالسيادة المطلقة، والإرادة التنفيذية والساهر الأول على تطبيق تعاليم الشرع. والقرآن الكريم فيه هو مصدر التشريع وعلى ضوئه تبنى السياسة فقال في ذلك :" ... الحكومات التيوقراطية هي النموذج الذي تتبعه الدول الإسلامية في حياتها السياسية فشيخ الإسلام هو الحاكم وهو الذي بيده السلطة المطلقة وبالتالي التصرف المطلق في شؤون الدولة، كما أنه الساهر الأول على ترجمة تعاليم القرآن الكريم على أرض الواقع". (Urbain,I.1862,28)

ومن أجل الظهور بمظهر المدنية رفض أوربان أن تقلّد فرنسا جانب القوة والبطش الإداري العثماني الذي كان سائدا بالجزائر من خلال قبائل القومية و المخزن حسب رأيه. فقال حين أشار إلى مجزرة العوفية التي ارتكبتها فرنسا في حق الجزائريين:" إن فرنسا ليست مستعدة أن تنجر وراء الأتراك لأخذ كيفية الحكم". (Voisin,G.1861.37) في إشارة منه إلى اتفاق ذلك التنظيم (العثماني) مع النظرة الفرنسية المطبّقة في بداية الاحتلال والتي كان أوربان يدعو إلى ضرورة تغييرها بنوع من رد الاعتبار للجزائريين. إذ أن فرنسا كانت قد سارعت مع بداية الاحتلال إلى إنشاء الكتائب الأهلية الخادمة لها على إثر قرار الجنرال كلوزيل في 01 أكتوبر

1830 ، وهو ما يعود إليه أوربان ويؤكّده بنفسه فقال :" كان النظام العثماني يعتمد على قبائل المخزن، في حين اعتمد الأمير عبد القادر على تنظيم القبائل وجعلها في صفّه وكذلك فعل أحمد باي، أما نحن فلابد أن نعتمد على تكوين الفيالق الأهلية المجندة لخدمتنا بصفة رسمية". (Voisin,G.1861.83) ثم يؤكد ذلك فيقول:" وكان علينا إحياء نظام الأتراك المتمثل في استغلال القبائل العسكرية للقبائل الأخرى". (Voisin,G.1861.83) وكان من ذلك أن ظهر أول فيلق للزواف وتلاه فيلق القناصة الجزائريين Chasseurs Algériens وفِرق " درك المور(الأهالي)"، والصبايحية. (Gouvernement,G.) ويمكن استخلاص دورها مما كتبه أوربان :" لقد أعطينا للرماة الأهالي وفرق الصبايحية دورا هاما من أجل تثبيت سيطرتنا بالجزائر. لا نتكلم عن دورهم في ساحة المعركة أو ككتائب منظمة فحسب، بل كان لهم دور كبير في حملتنا على القرم وإيطاليا، (نوار،ع؛ النعنعي،ع.1973، 237 ، 238) كما أبدعوا في الحروب بأوربا... وكان نفعهم بالجزائر مستفيضا دوما حيث شكلوا الصفوف الأولى في كل المعارك الحرجة التي أحاطت بالجنود الفرنسيين".(Voisin,G.1861,84,85) و" كثيرا ما حققت هذه الفيالق تحت قادتنا انتصارات لصالحنا على حساب القبائل الأهلية دون مشاركة كتائبنا إطلاقا". (Voisin,G.1861,88)

الدعوة إلى التعايش والتشارك بين الجزائريين والمعمرين: أو صهر الجزائريين في البوتقة الأوربية:

من جهة أخرى دعا أوربان إلى تحقيق التعايش بين الجزائريين والمعمرين لإقامة شعب واحد متشارك تحت السيادة الفرنسية، فصرّح أن الجزائر شهدت قبل الفتح تعددا عقائديا من مسيحيين أرثوذكس، ويهود، وأغلبية وثنية، إلا أنهم اعتنقوا الإسلام جميعا، في الوقت الذي لم يريدوا اعتناق الحضارة الفرنسية اليوم. والسبب في ذلك هو أن المسلمين آنذاك " نجحوا لأنهم أرادوا النجاح (أي أنهم كانوا قدوة)، فكل المسلمين سواء القادة منهم أو الجنود كان طموحهم واحدا هو تحقيق انتصار الدين الجديد". (Voisin,G.1861,125) وفي ذلك دعوة إلى إقناع الجميع أهالي ومعمرين إلى ضرورة العمل من أجل هدف واحد هو تحقيق الازدهار في حضارة بخصائص فرنسية. مذكّرا أن عدم تمكّن فرنسا من تحقيق الكثير في الجزائر يعود أساسا إلى أن " الفرنسيين بالجزائر غير مهتمّين بمهمة التمدين التي يقومون بها، ويعاملون الأهالي

كمنهزمين واقعين تحت الضغط والسيطرة، ولم يعاملوهم كمواطنين ملحقين بفرنسا". (Voisin,G.1861,125) فدعا الحكومة إلى الحكمة والتبصّر والاستفادة من تجارب الآخرين مشيرا إلى إن المنهج الأجدى لبسط الحضارة الفرنسية هو " أن نحبهم (الجزائريين) ونقدرهم ونحفظ كرامتهم وعاداتهم ولا نطعن في دينهم ولا في مقدساتهم فنصل إلى كسب ثقتهم فيسمعونا ويقلّدونا" وذلك بعد أن اعترف بأن الأهالي يكرهون الحضارة الفرنسية كرها شديدا. (Voisin,G.1861,125)

وحفاظا على الجزائر فرنسية جاءت اقتراحات أوربان التي يدعو الإدارة فيها إلى ضرورة التحكّم في الأهالي (الجزائريين) واضحة في مختلف كتاباته لا سيما حين كتب:" إن هذه الدراسة (الخصائص التي يقدمها عن المجتمع الجزائري) أريدها حصانة لنا من السقوط في المطبّات، فالنظام الذي نتبعه ليس نفسه مع كل الإثنيات (الجزائرية) إذ لا نصل إلى تحقيق أهدافنا مع الجميع بتطبيق نفس الاستراتيجية".(Voisin,G.1861,27) ولذلك نصح بتطبيق الإجراءات التالية:

أ. **تقسيم القبائل إلى دواوير**: وذلك حتى تتمكّن الإدارة الفرنسية من الوصول إلى الملكية الفردية التي استحدثتها، ومن ثمة تسهيل عملية تحويلها إلى المعمرين، ولا نجد هنا أحسن ما نستدل به من مقولة الإمبراطور نابليون الثالث نفسه في رسالة 1863 والتي هي من أفكار أوربان " إننا قد تأخرنا، ولا بد أن نقسّم القبائل إلى دواوير لتمكين الإدارة من الوصول إلى الملكية الفردية". (Napoléon.1863)

ويمكن اعتبار أهم ما صدر في مجال تفكيك الملكية من جماعية إلى فردية هو ما صرّح به الإمبراطور نفسه في خاتمة رسالة 1863 بقوله :" ... إنني أكلّف الماريشال راندون بتحضير مشروع سيناتوس كونسيلت فيما يخص الجزء الأساسي الذي سوف يعيد القبائل إلى شتات وإلى ملاّك ظاهريين لأراض كانوا يملكونها بتوطّنهم عليها واستقرارهم المتوارث بها". (Napoléon.1863)

ولا يستخلص من كتابات أوربان الشيء الكثير عن علاقته بصدور مرسوم سيناتوس كونسيلت في 22 أفريل 1863 وإنما يستنتج ذلك من خلال تطابق شبه كلّي بين مضمون المرسوم وبين ما كان يدعو إليه، إذ أن أوربان كان لا يحبّذ استعمال القوة في بسط السيطرة على أراضي الجزائريين، ولم يكن راضيا بسياسة المحتشدات التي جاء بها راندون. وكان يدعو لبقاء الجزائريين على أراضيهم لفلحها مع الاستفادة

من الطرق الزراعية الحديثة التي يَعْلمها المعمرون، داعيا في الوقت نفسه إلى تأسيس الملكية الفردية وإلى تحطيم التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري القائمة على القبيلة والعرش واستبدالها بالدواوير تمهيدا، كما مرّ بنا، لبناء مجتمع جزائري على الطريقة الفرنسية بحيث تحلّ البلدية (التي تخلف الدّوار) محل القبيلة والعرش.

عالج أوربان قضية الملكية عند الأهالي بحذر كبير ولم يكن ثابت المواقف بادىء الأمر إذ أنه صرّح بأن "الملكية شيء مقدّس لدى الأهالي" وأن الأرض بالنسبة للأهالي هويّة أكثر منها قضية مادّيّة، وأن الملكية لا تخرج عن إحدى الثلاثة أوجه فإما فردية أو جماعية أو حق تمتّع (بايلك) وهي بذلك غير قابلة للمصادرة. كما أبدى أوربان اهتماما بليغا بالمعتقد الإسلامي فيما يخص ملكية الأرض فاعتبر الخليفة حاكما باسم الله ومادام أن الأرض لله فإن الحاكم المسلم حرّ في التّصرّف في ملكيتها، حسبه دائما. ومن هنا استدلّ على أحقية الدولة العثمانية في ملكية البايلك وأن من حق فرنسا (الحاكم الجديد) أن يمتلك الأرض فحوّلت بذلك أراضي البايلك إلى مصلحة الدومين. وقال في هذا الشأن :" إننا نرى بأن السيطرة على الأراضي حق طبيعي للحاكم الذي اتّجه لجمع الأراضي العمومية". (Voisin,G.1861,94) كما ذهب إلى القول أيضا :"... إننا ندعو إلى استحداث الملكية الفردية ". (Voisin,G.1861,94) أي داخل الملكية الجماعية تيسيرا لنقلها إلى مصلحة الدومين للتّصرّف فيها كما تشاء.

وإذا علمنا أيضا تأثير أفكار أوربان على سياسة الإمبراطور فباستطاعتنا أن نقول إذا إن الرّاجح لدينا هو أن أوربان هو المهندس الرّئيسي لمرسوم 22 أفريل 1863 إذا علمنا أن أهم ما جاء به هو:

1. الاعتراف بأراضي البايلك.
2. تحديد أراضي العرش ورسم حدودها.
3. إنشاء الدواوير تمهيدا لإعلان البلديات ذات الطابع الفرنسي كبديل عن العرش.
4. إنشاء الملكية الفردية داخل الملكية الجماعية والاعتراف بها.

أما أهداف المرسوم فيمكن حصرها فيما يلي:

- " تسهيل مراقبة الجزائريين بأن تكون الإدارة الاستعمارية حاضرة في أصغر خلاياهم (الدّوّار)".

- " تفكيك المجتمع والتحكّم في إحدى الخلايا الأساسية فيه (العرش) تمهيدا للسيطرة، وقطع الجذور والأنساب والأصول تمهيدا لإنشاء الحالة المدنية". (سعد الله،أ. 2000، 36 ، 37)

ب. **تفتيت الأسر العريقة:** نصّت كتابات أوربان على وضع العناصر الخطرة تحت الرقابة الأمنية لأجهزة المكاتب العربية فقال :" كل القوى الحيّة في المجتمع لابد أن نروّضها لتقبّل سيطرتنا شاءت ذلك أم أبت من رجال الدين الذين يشكّلون فئات المقاومة أو المحافظين الحاقدين علينا". (Voisin,G.1861,38) مقلّدا العثمانيين فقال :" وكل الضربات التي وجّهناها لهم (الأهالي) منذ الاحتلال كانت ترويضا لهم على تقبّل القوّة مثلما خضعوا لها تحت سلطة الأتراك". (Voisin,G.1861,86) كما دعا إلى دحر السكان إلى الصحراء إبعادا لزعمائهم عن التأثير على عامة الشعب حتى تتجنب فرنسا المقاومات التي أرهقت كاهلها. وهي الأفكار التي دعّمتها فرنسا بمزيد من الإذلال والتبعية على الجزائريين بالإفقار عن طريق مصادرة الأرضي وفرض الضرائب العربية المرهقة. وكل ذلك من أفكار أوربان كما مر بنا. وقد خصّ أوربان تفتيت الأسر النافذة من أرستقراطيين وعسكريين وأسر عريقة سابقة، وذلك بتعويضها بشيوخ وقبائل أخرى من اختيار فرنسا بناء على مدى الإخلاص في خدمتها فقال :" إن الحياة العسكرية في إطار الفيالق المنضوية رسميا تحت الإدارة الاستعمارية تشكّل محطة تجريب لاختيار شيوخ القبائل والقياد والأعوان الأكفاء التي تحكم الكتائب الأهلية... فنقلّص بذلك نفوذ الأرستقراطيين العسكريين بنفس الدور الذي قلّصت به الإصلاحات في مجال التعليم خطر رجال الدين". (Voisin,G.1861,89,90)

ومن أمثلة الأسر التي تشتتت تلك التي تؤول إليها مشيخة القبيلة، والأمثلة في ذلك كثيرة " فقد تدهورت حالة عائلات كانت قبل 1830 غنية برجوازية، ومن ذلك العائلات التالية: آل يحيى آغا ، وآل الكبابطي، وآل الساجي، وآل الجيّار، وآل بن قشوط، وآل عمر القبي، وآل بن سيسني، وآل العمالي، وآل ابن العنابي، ويمكن أن نضيف إليهم آل خوجة وآل ابن مرابط، وآل مصطفى باشا، ...". (سعد الله،أ.1989، 17 ، 18)

وقد تركت هذه السياسة آثارا وخيمة، فمن جرّاء هذا التفكك أصبح أحفاد العائلات الأرستقراطية المشار إليها سابقا في أمسّ الحاجة إلى المساعدة بعد فقدان الأرض والثروة وتعمّد إدارة الاحتلال إفقارها وإذلالها، فتحوّلت إلى عائلات يمدّ أبناؤها أيديهم إلى المستعمِر بغية المساعدة " فهذا حمودة الفكّون (بن شيخ الإسلام) بقسنطينة

الذي كانت لعائلته أموال طائلة تضرب بها الأمثال كتب سنة 1852 إلى الحاكم العام راندون يلفت نظره إلى وضع عائلته السيّء، وهذا حسن بن الباي السابق لقسنطينة علي إنكليز يطلب أيضا من راندون أن يعيّن له معاشا يعيش به... . ونفس الطّلبات والشكاوى قدمها بعض كبار الأمس أمثال علي بن عيسى (قائد جيش أحمد باي) ومحمد مزوار الشرفاء في مدينة الجزائر ومرابطي وأشراف بجاية.... وزوجتَيْ أحمد، باي قسنطينة تطلبان سنة 1851 الإنعام عليهما براتب من السلطات الفرنسية". (سعد الله،أ.1989، 391)

ج. **تأسيس المحتشدات (الكانتونات):** لا ندّعي هنا بأن أوربان كان وراء سياسة المحتشدات وإنما يستشفّ من كتاباته أنه كان ضدّها، خاصة حين قال:" إن سياسة الكانتونات مستحيلة التطبيق". (Voisin,G.1861,118) ومع ذلك اعتمدناها هنا لأن أوربان دعا إلى سياسة التهدئة ومراقبة العناصر الخطرة وإخماد المقاومة وفصل قواعدها الشعبية عنها كما مرّ بنا. فكيف تتم التهدئة وفصل القواعد الشعبية دون اللجوء إلى سياسة المحتشدات التي رآها راندون (الذي كان يَعتبر أوربان خبيرا بالشؤون الأهلية) خير وسيلة لذلك. كما أن سياسة المحتشدات هذه هي طريقة أخرى تخفي وراءها دهاء المنظرين الفرنسيين الذين وجدوها أيضا جزءا من حل مشكلة انتقال الأراضي من الأهالي إلى المعمّرين، إذ حين يجمّع الأهالي في المحتشدات يُسمح للمعمرين بالاستحواذ على جزء هام من أراضي الأهالي تستغلّه الإدارة الاستعمارية في التمكين للاحتلال وبناء المستوطنات.

وقد جاءت الدعوة إلى تأسيس المحتشدات بعد أن سال لعاب نابليون ومنظّريه طمعا في خيرات الجزائر التي وصفها بقوله:" أرض الجزائر لا تزال واسعة والثروات بها معتبرة، فهي تحوي كل مريد للعمل كل حسب قدراته وعاداته واحتياجاته..." ووصف أهلها فقال:"... هذا العرق (الأهالي) أذكياء وواثقون من أنفسهم، ومحاربون وفلاحّون". فقد وصف الجزائر أرضا ومجتمعا بصفات تحمل أسس الحضارة، وذلك ما يتفق مع آراء أوربان الذي اعتبر، من قبل، منجزات الجزائريين عبر التاريخ أهم بكثير من منجزات فرنسا في حد ذاتها فقال :" لابد لفرنسا أن تتجاوز فكرة احتقار الأهالي إذ لابد أن تعلم جيدا أن التطوّرات التي حصلت على هذه الأرض المسلمة لم تحصل على أرضها. وإنما عليها أن تفعّل حركة الأهالي وتثمّن مجهوداتهم للمضيّ قدما". (Voisin,G.1861,15)

د. **دحر الأهالي إلى الصحراء:** في إطار السيطرة على الممتلكات دعا نابليون في رسالة 1863 صراحة إلى دحر الأهالي وإلجائهم إلى الصحراء فقال: " لابد من دحر العرب إلى الصحراء لأنه من غير الممكن معاملتهم كهنود أمريكا الشمالية (يعني الإبادة) لأن ذلك أمر مستحيل وغير إنساني أيضا". وهذا ما أكّدته كتابات أوربان الأخرى. ومن الشواهد على ذلك رسالة 1865 التي أكّدت على:

1. ضرب العائلات العريقة من خلال زعزعة مكانتها، لأن في ذلك تفككا للقبائل والقضاء الإسلامي. فيتم بذلك القضاء على ثوابت أصيلة للأمة الجزائرية تحت غطاء استحداث ديمقراطية حيّة كما وصفتها الرسالة.
2. تسهيل عمليات نقل ملكية الأراضي من الأهالي إلى المعمرين.
3. كراء الأراضي للأهالي من أجل فلاحتها بنظام الخماسة (؟).
4. إبعاد الأهالي من السهول إلى الجبال. وفي ذلك طرد لهم من أراضيهم الخصبة وتمكين المعمرين منها. (Napoléon III.1865)

وذلك ما أشار إليه أيضا تقرير سنة 1851 حين أكّد كل تلك الإجراءات سواء ما تعلّق بالقضاء على نفوذ الأسر الكبيرة (النافذة) كما مرّ بنا، أو بضمّ أبنائها إلى كتائب الجيش الفرنسي للخدمة فيه، واستعمالها كأدوات طيّعة لبسط الاحتلال ضد القوى الوطنية الحيّة، وفي ذلك يقول: " يمرّ الأهالي أولا عبر فرق الزواف ثم الصبايحية ثم فرق الرّماة الأهالي فيقومون بواجباتهم بصفوفنا حيث يستكمل حسن السيرة لديهم وتزداد كفاءاتهم العسكرية، بل والكثير منهم قد تعلّم لغتنا... ولا توجد قبيلة إلا ولنا منها جنود، وهؤلاء هم الأداة التي نصل بها إلى زرع الأفكار التي نريدها في أوساط الأهالي. وهم القوة الفعّالة التي نحسّن بها طرق وثقافة الأهالي باعتبار أنهم يتكونون بالقرب من مستوطناتنا العسكرية... وشكلنا منهم قوة فعّالة بتعداد خمسة آلاف رجل، كما نستعملهم أيضا كمرشدين أثناء حروبنا". كما دعا أيضا إلى توظيف رجال الدين المتساهلين مع المستعمر وهم الذين يسمّيهم " العناصر المتحرّرة الثائرة على التيار المحافظ" وهم (المتحرّرون) من صنع الاستعمار في حد ذاته. (Urbain,I.1851) مشيرا إلى دور المكاتب العربية في مراقبة الرأي العام الجزائري لاسيما رجال الدين منهم.

كما دعا أوربان في إجراءاته الإدارية المتعلّقة بإخضاع الجزائريين إلى توظيف قدرات المكاتب العربية التي أشاد تقرير 1851 بالمجهودات التي تقوم بها باعتبارها السّاهر الرئيس على حسن سير الإدارة الفرنسية بالجزائر، فهي التي تراقب الرأي العام الجزائري وترفع في ذلك التقارير إلى الحاكم العام وهي التي تشرف على جباية الضرائب من الأهالي وهي التي تراقب حركات الثّوار ورجال الدين كما مرّ بنا.

ولا شك أن القاريء يقف أمام فكرتين متناقضتين تتمثل الأولى في دفاع أوربان عن الأهالي، في حين تتمثل الثانية في تأييده للدور الذي كانت تلعبه المكاتب العربية. ولعلّ الجمع بين هذين الفكرتين المتناقضتين تجعلنا نقول أن أوربان كان يعتبر الجزائريين مواطنين من الدرجة الثانية حينما يتعلّق الأمر بالمصلحة الفرنسية، ولذا كان يقول:" من حق الأهلي علينا أن نعيره اهتماما أكثر من ذلك المعمّر"، وقال أيضا :" إنهم مثلنا عليهم كل الواجبات وكأهالي لهم كل الحقوق التي تؤهّلهم للتمدّن" ثم عاد وبيّن كُنْهَ ذلك بقوله:" على فرنسا أن تجعل مصلحة الأهالي في الدرجة الثانية مقارنة بالمصلحة الفرنسية". (Urbain,I.1862,68).

قائمة المصادر والمراجع:

1. المصادر باللغة العربية:

(1) القرآن الكريم.

2. المراجع باللغة العربية:

(1) سعد الله أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954. ج3. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 1998.

(2) سعد الله أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954. ج6. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 1998.

(3) سعد الله أبو القاسم. الحركة الوطنية الجزائرية. ج1- ق1. 1830- 1860. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989.

(4) سعد الله أبو القاسم. الحركة الوطنية الجزائرية. ج1- ق2. 1860- 1900. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 2000.

(5) عميراوي احميدة. السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في منطقة سكيكدة (1838 - 1858). دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. 2004.

(6) نوار عبد العزيز والنعنعي عبد المجيد. أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية. دار النهضة العربية. بيروت. لبنان. 1973.

3. المصادر باللغة الفرنسية:

(1) Edouard- Henri Cordier. Napoléon III et L'Algérie. Ancienne Imprimerie V. Heintz. Alger. 1937.

(2) Emerit Marcel.Les saint-simoniens en Algérie. Edition les belles lettres. Paris.1941.

(3) Gouvernement générale de L'Algérie. L'Armée d'Afrique 1830 – 1930. son évolution, ses uniformes. Préface du Maréchal Franchet- D'Esperey.

(4) Levallois Anne. Les écrits autobiographiques d'Ismayl Urbain. Maisonneuve et Larose. Paris. 2005.

(5) NapoléonIII . Lettre de 1863 in Le Moniteur Universel 07 février 1863.

(6) NapoléonIII . Lettre sur la politique de la France en Algérie . adressé au Maréchal de Mac Mahon, Duc de Magenta gouverneur générale de l'Algérie. Imprimerie Impériale. Paris 20 juin 1865.

(7) Régnier Philippe. Ismayl Urbain. Voyage d'Orient. Suivi de Poème de Ménilmontant et d'Egypte. L'Hamattan. 1993.

(8) Urbain Ismayl. L'Algérie Française. Indigènes et Immigrants. Un Manifeste pour une colonisation de l'Algérie. Préface Michel levallois. Séguier.

(9) Voisin Georges. L'Algérie pour les Algériens. Michel Lévy frères. Paris. 1861.

(10) Warnier. L'Algérie devant L'Empereur .librairie challamel aîné. Paris. 1865

4. المراجع باللغة الفرنسية:

(1) Levallois Michel. Ismayl Urbain (1812 – 1884). Une autre conquête de l'Algérie. Paris. Maisonneuve et Larose.2001.

5. المقالات اللغة الفرنسية:

(1) Massi Henri. Les études Arabes en Algérie 1830 – 1930.In Revue Africaine.N 356 -357.

(2) Yver Georges. Enfantin et L'Emigration étrangère en Algérie. In Revue Africaine. N 295